الزجّاجي

حياته وآثاره

ومذهبه النحوي من خلال كتابه «الإيضاح» [1]

(١)

حياة الزجاجي

نسبه :

هو أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق ، ويقف نسبه عند أبيه فلا يذكر أحد شيئاً عنه بعد ذلك على كثرة الذين ترجموا له ، ولعل لأصله الفارسي أثراً في ذلك إذ لو كان عربياً لما ضاع عنا نسبه نظراً لما عرف عن العرب من العناية بالأنساب ، وعلى كلٍ فان ضياع معالم النسب أمر نلاحظه عند كثير ممن لم يَشْهرهم نسبهم أو ترفعهم أسرهم ، وانما سَمَوا بأنفسهم وشَهَرتهم أعمالهم .
والزجاجي واحد من هؤلاء ، حتى إنه لم ينسب الى اسرته وإنما نسب الى أستاذه ابراهيم بن السريّ الزجاج فعُرف به .

ولد ابو القاسم بنهاوند ـ جنوبي همذان ـ وقيل في الصَيمَرة ، وهي في جنوب همذان أيضاً ، ولذلك نسبوه الى نهاوند ، قال ابن خلكان : « هو البغدادي داراً ونشأة ، النهاوندي اصلاً ومولداً [2] . » ونسبوه إلى الصيمرة

---

(١) بحث مفصل في حياة أبي القاسم الزجاجي المتوفّى سنة ٣٣٧ هـ ووصف مؤلفاته ، وعرض لكتابه « الإيضاح في علل النحو » ومذهبه النحوي فيه .

(٢) وفيات الأعيان ١ : ٣٤٩

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

كما ذكر السيوطي [١] ، وجمع القفطيّ النسبتين فقال « هو نهاوندي من اهل الصيمرة [٢] . »

نشأته :

وتدلّ سيرة الزجاجي على أنه كان محباً للعلم بكثر السعي والرحلة في سبيله فقد غادر مسقط رأسه الى العراق ، واستقرّ في بغداد ونشأ فيها ، ثم غادرها إلى الشام فأقام مدة بحلب ، وانتقل بعد ذلك الى دمشق فدرّس فيها وأفاد ، وقيل إنه خرج بعد ذلك الى طبرية ومات فيها .

وكانت حياة أبي القاسم حركة دائمة وعلماً متصلاً ، فهو — حيثما يقم — تلميذ متطلّع مستفيد أو معلم يجلس للدرس والإملاء ، وذلك ما تؤيده صلته الشديدة المستمرة بشيوخه وتلاميذه .

وأجمع الذين تحدثوا عن الزجاجيّ أنه كان ورعاً تقياً ، وقالوا في تأليفه كتاب الجمل إنه ألّفه بمكة وكان لا يضع باباً منه أو مسألة من مسائله إلا وهو على طهارة ، فاذا انتهى من وضعه طاف به حول الكعبة أسبوعاً [٣] يدعو الله أن ينفع به ... وذكر بعضهم أنه كان متشيّعاً وكان محباً للنظافة معنياً بهيأته ، حسن الشارة مليح البزّة [٤] »

وكان ثقة يؤخذ عنه الحديث ويتردّد اسمه في الأسانيد . قال الحافظ ابن عساكر « وحدّث عن جماعة واسند حديثاً كثيراً [٥] » . وروى ابن عساكر أخباراً كثيرة كان للزجاجي في أسانيدها نصيب كبير [٦] .

(١) بغية الوعاة : ٢٩٧
(٢) إنباه الرواة ٢ : ١٦٠
(٣) أي سبع مرّات
(٤) مخطوطة إشارة التعيين . الورقة : ٢٦
(٥) تاريخ ابن عساكر ٩ : ٤٣٣
(٦) المصدر السابق ٩ : ٤٣٢

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وفاته :

وأما وفاته فكانت على الأرجح في سنة ٣٣٧ هـ في طبرية . وكان ابو بكر الزبيدي [١] أقدم من ذكر هذا التاريخ ممن ترجموا للزجاجي ، ورجحه ابن خلكان وقال هو الأصح [٢] وزعم ابن تغري بردي أن وفاته كانت سنة ٣٣٩ [٣] وتردّد ابن الأثير بين هذين التاريخين [٤] وجزم القفطي [٥] وابن العماد الحنبلي [٦] وابن شاكر الكتبي [٧] واليمني [٨] ان وفاة الزجاجي كانت في سنة ٣٤٠ وايّدهم في ذلك ابن عساكر فقال « أخبرنا ابو محمد بن الاكفاني : أخبرنا عبد العزيز بن احمد قال : توفي ابو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي النحوي بطبرية في شهر رمضان من سنة سنة اربعين وثلاثمائة » ثم قال « ورأيت في كتاب عتيق : مات ابو القاسم الزجاجي بالشام بطبرية في رجب سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة . قال ابن الاكفاني : وهو خطأ [٩] »

وهكذا ينحصر اختلافهم في تاريخ وفاته بين سنتي ٣٣٧ و ٣٤٠ وهو أمر يسير لا يترتب عليه شيء ذو بال وأيًا كانت سنة وفاة الزجاجي فهو قد عاصر من خلفاء العباسيين المقتدر وابن المعتز والقاهر بالله والراضي والمتقي والمستكفي ومات في خلافة المطيع حين كانت مقاليد الحكم بيد بني بويه .

(١) طبقات اللغويين والنحاة : ١٢٩
(٢) وفيات الأعيان ١ : ٣٨٩
(٣) النجوم الزاهرة ٣ : ٣٠٢
(٤) الكامل ٨ : ١٩٤
(٥) انباه الرواة ٢ : ١٦٠
(٦) شذرات الذهب ٢ : ٣٥٧
(٧) عيون التواريخ
(٨) اشارة التعيين
(٩) تاريخ ابن عساكر ٩ : ٤٣٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

اساتذته :

حب الزجاجي للعلم جعله يكثر الأخذ عن شيوخ العلم وأربابه حتى بلغ الذين اخذ عنهم عشرين أستاذاً ، وكأنه أحب ان يجمع ما يستطيع من ثقافة عصره فما نزل بلداً إلا تلقى على مشايخه واخذ عن أساتذته ولو كانوا ذوي آراء متعددة ومذاهب مختلفة ، وكان اثر هذا الاختلاف والتعدد جلياً واضحاً في ثقافته وآرائه .

في طليعة أساتذته من غير شك ذلك الأستاذ الذي لازمه ابو القاسم حتى نسب إليه وعُرف به وهو أبو اسحاق ابراهيم بن السريّ بن سهل الزجاج المتوفى سنة ٣١١ وقد عدّه الزجاجي في مقدمة الذين ذكرهم من أساتذته وشيوخه حين تحدث عنهم فقال :

« فمن العلماء الذين لقيتهم وقرأت عليهم شيخنا ابو اسحاق ابراهيم بن السري الزجّاج رحمه الله . وابو جعفر محمد بن رستم الطبري غلام ابي عثمان المازنيّ وابو الحسن بن كيسان ، وابو بكر احمد بن الحسين بن العبّاس المعروف بابن شقير ، وابو بكر محمد بن احمد بن منصور المعروف بابن الخيّاط ، وابو بكر ابن السرّاج ، وابو الحسن علي بن سليمان الأخفش »

ثم قال « .... وابو بكر بن الأنباري ، وابو موسي المعروف بالحامض وكان الأغلب عليه علم اللغة إلا أنا قد اخذنا عنه حكايات يسيرة ، وابو الفضل الملقّب بزبيل وابو محمد عبد الملك بن مالك الضرير وغير هؤلاء ممن لم يُشهر من الكوفيين [1] . »

وذكر الذين تحدثوا عن الزجاجيّ أنه أخذ عن علماء آخرين وكان ممّن أخذ عنهم أبو عبد الله ابراهيم بن محمد بن عرفة المعروف بنفطويه المتوفى سنة ٣٢٣

(١) الإيضاح : باب المستحق للاعراب من الأسماء والأفعال والحروف .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأبو بكر محمد بن الحسن بن دريد المتوفى سنة ٣٢١ وأبو عبد الله محمد بن العباس اليزيدي المتوفىّ سنة ٣١٦ وأبو بكر محمد بن يحيى الصولي المتوفى سنة ٣٣٥ وابو عبد الرحمن عبد الله بن هانىء النيسابوري وأبو العلاء احمد بن عبيد الله ابن الحسن بن شقير البغدادي وأبو جعفر أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة المتوفى سنة ٣٢٢ وابو العباس احمد بن عبيد الله بن عمّار الثقفي المتوفى سنة ٣١٤ وابو القاسم جعفر بن قدامة الكاتب المتوفى سنة ٣١٩ .

وزاد ابن عساكر على هؤلاء أستاذين آخرين ، هما أبو عبد الله الحسين بن محمد الرازي وأبو علي الحسن بن علي العتري [١] .

هؤلاء هم الأعلام الذين أخذ الزجاجي عنهم وتخرّج على أيديهم ولا بدّ من الإشارة إلى أنه كان منهم البصريون كما كان منهم الكوفيون وكان لذلك آثار ظهرت في آراء الزجاجي ومؤلفاته كما سنرى .

تلامذته :

وأما تلامذته فمنهم من أخذ عنه مباشرة ، ومنهم من انتفع بكتبه ، وقد كان يحب أن ينفع الله الناس بعلمه فما يؤلف حتى يطهّر ويطوف ويدعو . وكان ممن أخذ عنه محمد بن سابقة النحويّ ، وعبد الرحمن بن محمد بن أبي نصر وعبد الرحمن بن عمر بن نصر ، وأحمد بن محمد بن سلامة (أو سلمة) الدمشقيون وأبو الحسن علي بن محمد بن اسماعيل بن محمد التميميّ الأنطاكيّ وهو الذي روى عنه كتابه مختصر الزاهر [٢] وذكر ابن عساكر أن ممن حدّث عن الزجاجي أيضاً أبا يعقوب اسحاق بن احمد الطائي [٣] .

---

(١) تاريخ دمشق : ٩ : ٣٤٢

(٢) فهرسة ابن خير : ٣٤٣

(٣) ابن عساكر ٢ : ٤٠٥

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ونلاحظ أن أكثر تلامذة الزجاجي كانوا من دمشق ، ولعل سبب ذلك أنه أقام في دمشق أكثر مما أقام في غيرها وفيها حدّث وأملى وألّف . قال محقق كتاب الجمل « ثم سكن دمشق وطبرية وأيلة فأملى وحدّث ولا سيما بدمشق »[١] وقال القفطي « وانتقل الى الشام فأقام بحلب مدة ثم انتقل إلى دمشق فأقام بها وصنّف »[٢] وكذلك ذكر ابن عساكر[٣] والسيوطي[٤] . وجاء في (اشارة التعيين) انه كان يدرس بجامع دمشق .

وأما الذين انتفعوا بتآليفه فقد شاع على الألسن أنهم كثيرون . وكأن المؤلفين لمّا سمعوا خبر ورعه وتقاه ودعائه أن ينفع الله الناس بعلمه وقعوا تحت تأثيره وتناقلوا خبر النفع بكتبه حتى انه ما من أحد منهم ذكر كتاب الجمل للزجاجي إلا وصفه بالبركة والنفع العميم .

قال ابن خلكان « وكتابه الجمل من الكتب المباركة لم يشتغل به أحد إلا وانتفع به » ثم يقول ـ وكأنه يعلّل ـ « ويقال إنه صنّفه بمكة حرسها الله تعالى وكان اذا فرغ من باب طاف به أسبوعاً ودعا الله تعالى أن يغفر له وأن ينفع به قارئه »[٦] .

وقال اليافعي : « وسكن دمشق وانتفع به الناس وانتفع بكتابه خلق لا يحصون » ثم ذكر ما ذكره ابن خلكان من أمر الطواف والدعاء ووصف كتاب الجمل بالوضوح وأنه مبارك ما اشتغل به أحد إلا انتفع وأن نفعه عمّ بلاد الإسلام[٧] .

---

(١) مقدمة الجمل
(٢) الانباه ٢ : ١٦٠
(٣) تاريخ دمشق ٩ : ٤٣٢
(٤) البغية : ٢٩٧
(٥) اشارة التعيين و ٢٦
(٦) وفيات ١ : ٣٨٩
(٧) مرآة الجنان ٢ : ٣٣٢

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقال صاحب كشف الظنون في معرض حديثه عن كتاب الجمل « وهو كتاب نافع ومفيد » .

وجاء في شذرات الذهب أنه « انتفع بكتابه خلق لا يحصون . . . »[1] .

وجاء في الانباه ما يوضح هذا الربط بين دعاء الرجل وانتفاع الناس بعمله إذ روى القفطي الخبر الآتي « وسمعت من لفظ الشيخ أبي البقاء صالح بن عادي الغوري الأنماطي النحوي نزيل قفط ان الزجاجي ـ رحمه الله ـ صنف الجمل بمكة حماها الله وكان اذا فرغ من باب طاف به أسبوعاً ودعا الله ان يغفر له وان ينفع به قارئه ولهذا انتفع به الطلبة . . . »[2]

ثقافته :

لقد كانت ثقافة الزجاجي ثقافة رجل عاش في أواخر القرن الهجري الثالث وأدرك أربعين سنة من القرن الرابع ، هذا القرن الذي حفل بنتاج خصب للعقلية الإسلامية في أوج نضجها ورقيها ، فعاصر الأخفش علي بن سليمان والزجاج وابن السراج وابن الانباري والسيرافي وابن دريد ، وغيرهم ، وكان واحداً منهم ، بل من اكثرهم نشاطاً في العلم والتأليف .

وتظهر لنا سعة ثقافته في مؤلفاته الكثيرة ، وما تتصف به من علق وتنوع وكأنه جمع في نفسه ما تفرق عند أساتذته من فنون العلوم ؛ فقد كان منهم من اتسع أفقه في النحو كالأخفش علي بن سليمان وابن الخياط وابن شقير وابن كيسان فكان الزجاجي مثلهم في سعة العلم بالنحو وما يتصل به من اختلاف المذاهب وتشعب الآراء . وكان منهم من غلب عليه علم اللغة كابن دريد وأبي موسى الحامض ، فكان الزجاجي كذلك لغوياً كما هو في أماليه .

(١) الشذرات ٢ : ٣٥٧

(٢) الانباه ٢ : ١٦١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ونرى الزجاجي اذا تعرّض للنقد ناقداً بصيراً بمواطن الضعف عارفاً بمحاسن التأليف ، فهو يكره الجمع والتقليد ، ويحب الإبداع والابتكار ، والوضوح والسلامة من الخطأ ، ويقدّر تعب المؤلف وجهده ... ويتضح هذا في نقده للمفضّل صاحب كتاب « الفاخر » ولابن الأنباري صاحب « الزاهر » حين أتى على ذكر هذين الكتابين في مقدمة « مختصر الزاهر »[1] .

وقد اشتهر الزجاجي بكثرة تآليفه حتى عرف بصاحب التصانيف[2] ، وكانت تصانيفه متنوّعة الموضوعات ففيها النحو والصرف وحروف الهجاء والمعاني والقوافي والشعر واللغة والأدب ، وسيأتي الحديث عن هذه الآثار مفصلاً فيما بعد .

ولم تكن ثقافة أبي القاسم عربية فحسب ، إذ كان عارفاً لبعض اللغات الأخرى وقد ذكر ذلك دون أن يصرّح بهذه اللغات أو بعيّنها فقال في معرض حديثه عن أقسام الكلام وكونها لا تخرج عن اسم وفعل وحرف : « وقد اعتبرنا ذلك في عدّة لغات عرفناها سوى العربية فوجدناه كذلك . »[3] . وكم كنا نودّ لو أنه عيّن هذه اللغات أو لجأ خلال حديثه عن العربية إلى شيء من الموازنه بينها فكانت تكون معرفته لغير العربية أعود بالنفع والفائدة .

ولا بد لنا ونحن بصدد تقويم ثقافة الزجاجي من وقفة قصيرة عند رأي أبي علي الفارسي الذي نقلوا عنه أنه قال : « لو سمع الزجاجي كلامنا في النحو لاستحيا أن يتكلم فيه »[4] .

---

(١) ص ٢١ من هذا البحث

(٢) شذرات الذهب ٢ : ٣٥٧

(٣) الايضاح : ٦

(٤) نزهة الألبا : ٣٧٩ . وإنباه الرواة ٢ : ١٦٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لم ينقل هذا القول أحد ممن عاصر الرجلين وترجم لهما كالزبيدي وابن النديم وانما نقله المتأخرون كابن الأنباري (٥٧٧ هـ) والقفطي (٦٤٦ هـ)! ومع ذلك فإذا صحّ صدور هذا القول عن الفارسي — وما أراه غريباً عنه — فيجب أن نعرف دوافعه ونتبين مدى الحق فيه .

لقد كان الفارسي أستاذ عصره ومتقدّم أهل الصنعة في زمانه وأنحى من جاء بعد سيبويه ولم يكن الزجاجي ندّاً له على الرغم من أن ابن الأنباري يعدّه في طبقته . إلا أن تأخر الزجاجي عن مرتبة الفارسي لا يبرّر هذا الازراء به والطعن عليه ، فكتب الرجل شاهدة بعلمه ، وأقوال العلماء فيه وإقبالهم على آثاره دليل على مكانته وفضله . وما أظن رأي الفارسي فيه إلا من قبيل عداوة الصنعة والطعن على أهلها والحرص على مكان الصدارة فيها ، وقد اعتاد الفارسي أن يطلق مثل هذا القول في زملائه ونظرائه ، وقد قال ما يشبهه في أبي الحسن الرمّاني حين زعم انه إن كان النحو ما عند الرمّاني فليس عنده منه شيء ، وإن كان النحو ما عند الفارسي فليس عند الرماني منه شيء . وذكرت عنه أقوال ينال بها من ابن الخياط وابن خالويه والسيرافي .. وغيرهم [1] وقد نستطيع أن نضيف الى هذا العامل النفسي عاملاً آخر هو أن أبا علي كان يحب سيبويه ويعجب به ويتعصّب له ، والزجاجي لم يكن — على إعجابه بسيبويه وانتصاره له — ليقبل كل آرائه بل لقد مال عن بعضها وقال بخلافه [2] أفيغضي الفارسي عيناً عن هذا الرجل يتطاول على مقام سيبويه ؟

وقد أورث الفارسي حبه لسيبويه وتعصبه له تلاميذه من بعده ، فكان ابن جني كثير الإعجاب بسيبويه شديد الحماسة له عنيفاً في الذّود عنه ، وقد

(١) انظر رسالة الفارسي الى سيف الدولة الحمداني في معجم الأدباء ٧ : ٢٥٧

(٢) انظر مثلاً باب الصفة المشبهة في كتاب الجمل .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ظهر هذا العنف حين ردّ على المبرد لأنه تعقب على سيبويه فعدّه واهماً بل جعل المغالطة في آراء سيبويه عادة سار عليها المبرّد[1] (!) على حين نجد الزجاجي في كثير من الأحيان معجباً بالمبرد ينتصر له ويفخر بابتكار الحجج لتأييده وتثبيت رأيه[2] . ثم إن الزجاجي تلميذ الزجاج ، والزجاج تلميذ المبرّد المقدّم وهو الذي أحبه وتعصب له وهجر شيخه ثعلباً لأجله بل ألّف في الرد عليه أفلا يعقل في طباع البشر أن يكون إعجاب الزجاجي بأستاذه وانتصاره لشيخ أستاذه سبباً في سخط الساخطين على الأستاذ وشيخه ؟

مهما يكن من أمر ، وسواء كان الفارسي مخلصاً في رأيه أو غير مخلص فقد كان هذا الرأي مجانباً للحق بعيداً عن الصواب .

مذهبه النحوي :

لم يكن الزجاجي غريباً في العصر الذي عاش فيه ، ولا بعيداً عن جوّ البيئة التي نشأ فيها ، وانما كان ابن عصره وبيئته . أما العصر الذي عاش فيه فقد كان يتميز بفتور حدّة التعصب المذهبي في النحو . وأما بيئته فقد قامت فيها طبقة جديدة من العلماء جمعتها مساجد بغداد ، وحلقات العلم فيها ، ووصل اليها علم البصرة والكوفة ، فإذا هي لا تميل الى قول إحداهما كل الميل ولكنها تأخذ من كل من القولين بطرف مع شيء من التفاوت في مقدار ما تأخذ .

والزجاجي واحد من هؤلاء الذين تلقوا علم البصرة والكوفة ، وبسطوا أقوال علماء المذهبين جميعاً منتخبين منها ما يرون أنه الحق ، وكان بعد ذلك أميل الى البصريين في آرائه وأحكامه .

وليس غريباً أن يكون الزجاجي بغدادي النزعة مع ميله إلى الأخذ بأقوال

(١) انظر سر صناعة الإعراب : ٢١١

(٢) انظر باب معرفة حد الاسم والفعل والحرف في كتاب الإيضاح .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

البصريين . ولا عجب في أن يحيط علماً بالمذهبين البصري والكوفي ، وأن يعتدل بينهما فلا يتعصب لأحدهما فقد كان معظم أساتذته كذلك ؛ فأستاذه الأخفش كان قد قرأ على ثعلب كما قرأ على المبرد [١] ، وأستاذه ابن الخياط كان يخلط المذهبين ، ويمزج نحو البصريين بنحو الكوفيين [٢] ، وكذلك كان أستاذه ابن شقير الذي خلط علم البصريين بعلم الكوفيين [٣] ، وابن كيسان الذي كان بصرياً كوفياً يحفظ القولين ويعرف المذهبين وقد أخذ عن ثعلب والمبرد [٤] ، وكان قيماً بمذهب البصريين والكوفيين [٥] . وأبو بكر بن السرّاج الذي أخذ عن المبرد وإليه آلت رياسة النحو بعده ، ولكنه عوّل على مسائل الأخفش والكوفيين ، وخالف أصول البصريين في مسائل كثيرة [٦] .

بل ندع هؤلاء وننظر في سيرة الزجاج نفسه وهو الذي كان أبو القاسم شديد الصلة به ، كثير الملازمة له ، ألم يكن من تلامذة ثعلب ثم غدا بعد ذلك بصرياً من أبرع أصحاب المبرّد ؟ قال الزبيدي : «لما قتل المتوكل بسرّ من رأى ، رحل المبرد إلى بغداد ، فقدم بلداً لا عهد له بأهله ، فاختلّ وأدركه الحاجة ، فتوخّى شهود صلاة الجمعة ، فلما قضيت الصلاة أقبل على بعض من حضره وسأله أن يفاتحه السؤال ، لينسبّب له القول ، فلم يكن عند من حضره علم ، فلما رأى ذلك رفع صوته وطفق يفسر ، يوهم بذلك أنه قد سُئل ، فصارت حوله حلقة وأبو العباس يصل في ذلك كلامه ، فتشوّف أبو العباس

---

(١) معجم الأدباء ١٣ : ٢٤٦

(٢) نزهة الألبا : ٣١٢ والفهرست : ١٢١

(٣) أخبار النحويين البصريين : ١٠٩

(٤) طبقات الزبيدي : ١٧٠

(٥) نزهة الألباء : ٣٠١

(٦) نزهة الألباء : ٣١٣ ، ومعجم الأدباء ٨ : ١٩٧

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أحمد بن يحيى إلى الحلقة ، وكان كثيراً ما يرد الجامع قوم خراسانيون من ذوي النظر ، فيتكلمون ويجتمع الناس حولهم ، فاذا بصُر بهم ثعلب أرسل من تلاميذه من يفاتشهم ، فإذا انقطعوا عن الجواب انفضّ الناس عنهم . فلما نظر ثعلب إلى من حول أبي العباس أمر ابراهيم بن السري الزجاج وابن الحائك بالنهوض ، وقال لهما : فضّا حلقة هذا الرجل . ونهض معهما من حضر من أصحابه ، فلما صارا بين يديه قال له ابراهيم بن السري : أتأذن ـ أعزّك الله ـ في المفاتشة ؟ فقال له أبو العباس : سل عمّا أحببت . فسأله عن مسألة فأجابه فيها بجواب أقنعه ، فنظر الزجّاج في وجوه أصحابه متعجباً من تجويد أبي العباس للجواب . فلما انقضى ذلك قال له أبو العباس : أقنِعت بالجواب ؟ فقال : نعم . قال : فإن قال لك قائل في جوابنا هذا كذا ، ما أنت راجع إليه ؟ وجعل أبو العباس يوهي جواب المسألة ويفسده ويعتلّ فيه ، فبقي إبراهيم سادراً لا يُحير جواباً ، ثم قال : إن رأى الشيخ ـ أعزّه الله ـ أن يقول في ذلك ؟ فقال أبو العباس فإن القول على نحو كذا . . . فصحح الجواب الأول وأوهى ما كان أفسده به ، فبقي الزجّاج مبهوتاً ، ثم قال في نفسه قد يجوز أن يتقدّم له حفظ هذه المسألة واتفاق القول فيها ثم يتفق أن أسأله عنها . فأورد عليه مسألة ثانية ، ففعل أبو العباس فيها بنحو فعله في المسألة الأولى حتى والى بين أربع عشرة مسألة يجيب عن كل واحدة منها بما يقنع ، ثم يفسد الجواب ، ثم يعود إلى تصحيح القول الأول . فلما رأى ذلك ابراهيم بن السري قال لأصحابه : عودوا إلى الشيخ ، فلست مفارقاً هذا الرجل ، ولا بدّ لي من ملازمته ، فعاتبه أصحابه وقالوا : تأخذ عن مجهول لا تعرف اسمه ، وتدع من قد شُهر علمه وانتشر في الآفاق ذكره ؟ فقال لهم : لست أقول بالذكر والخمول ولكني أقول بالعلم والنظر . فلزم أبا العباس ، وسأله عن حاله ، فأعلمه برغبته

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في النظر وأنه قد حبس نفسه على ذلك إلا ما يشغله من صناعة الزُّجاج في كل خمسة أيام من الشهر ، فيتقوّت بذلك الشهر كله . ثم أجرى عليه في الشهر ثلاثين درهماً ، وأمره أبو العباس باطراح كتب الكوفيين . ولم يزل ملازماً له . وآخذاً عنه حتى برع من بين أصحابه [١] » .

على أن هـذا لا يعني أن أساتذة الزجاجي كلهم كانوا بين البصريين والكوفيين وإنما كان بعضهم ذا مذهب أو اتجاه واضح ، كابن الأنباريّ الذي كان كوفياً ، بل « أحفظ من تقدم من الكوفيين [٢] ، وأعلم الناس بنحوهم [٣] ، وشديد الولاء لمذهبهم » حتى إنه تعصب ضد ابن كيسان ، لأن هذا خلط بين المذهبين . وكأبي موسى الحامض الذي كان يتعصب على البصريين مع أنه خلط القولين [٤] على عكس ابن كيسان الذي كان ميله الى مذهب البصريين أكثر [٥] .

فجلّ أساتذة الزجاجي إذاً ممن خلط المذهبين ، وإن كان لبعضهم ميل إلى آراء البصريين أو الكوفيين . وهو لا يختلف عن هؤلاء الأساتذة الأحرار الذين لم تستبعدهم أقوال فئة معينة من النحاة ، وانما كانوا يطلعون على القولين ، ويختارون من المذهبين .

لقد كان الزجاجي مستقلّ الشخصية حرّ الفكر لا هو بالبصريّ المحض ، ولا بالكوفي المحض ؛ يرى الرأي فلا يخشى أن يخالف فيه من سبقه كوفياً كان أو بصرياً . وقد يذكر الرأيين ثم ينعت أحدهما بما يدلّ على تأييده للثاني

(١) طبقات الزبيدي : ١١٨
(٢) المصدر السابق : ١٧١
(٣) معجم الأدباء ٨ : ٣٠٦
(٤) بغية الوعاة : ٢٦٢
(٥) طبقات الزبيدي : ١٧٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كأن يقول : « وإن قلت كذا كان قبيحاً . وأهل البصرة لا يجيزونه [١] » . أو أن يقول بعد ذكر رأيه : « هذا هو الوجه الجيد [٢] » . وقد يعرض لأكثر من رأي واحد ، فيصنف الآراء تصنيفاً يسير فيه بحسب القوة والضعف في رأيه ، كأن يقول : « الأجود في هذا الباب كذا ، وبعد ذلك كذا .... ودون ذلك كله كذا .. » [٣]

وأما إذا أردنا ان نتعرف الى مذهب الزجاجي النحوي من خلال استعماله للمصطلحات ، وقد كان لكل من البصريين والكوفيين مصطلحاتهم ، فإننا نجده العالم العدل الذي لا تهمه الأسماء ، بل يهمه أن يوضح مراده ، ويدني المعنى من الفهم ، فنراه يستعمل الأسماء المختلفة للمسمّى الواحد ، كقوله : « الفصل و يسميه الكوفيون العماد » [٤] . ونراه يصرح بتغيير ألفاظ الذين يحكي عنهم فيقول : « وإنما نذكر هذه الأجوبة عن الكوفيين ... إلا أن العبارة عن ذلك بغير ألفاظهم » . وهو لا يفعل ذلك تعصباً ضدهم بل رغبةً منه في التوضيح كما يقول ، « لأنه « لو تكلفنا حكاية ألفاظهم بأعيانها ، لكان في نقل ذلك مشقة علينا من غير زيادة في الفائدة ، بل لعل أكثر ألفاظهم لا يفهمها من لم ينظر في كتبهم » [٥] .

الخلاصة إذاً أن الزجاجي كان كأكثر أساتذته الذين لم يكونوا بصريين خلّصاً ولا كوفيين خلّصاً ، وانما كانوا ذوي نزعة تجديدية تمزج بين نحوي البصرة والكوفة ، وتأخذ من محاسنها ، تاركةً العصبية المذهبية جانباً ، فلم تكن ثقافتهم النحوية بصرية محضاً ، وانما كانت مزاجاً من الثقافتين وانتقاء

(١) الجمل : ١٥٠
(٢) الجمل : ١٦٩
(٣) الجمل : ٢١٨
(٤) الجمل : ١٥٢
(٥) الايضاح : ٧٢

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من المذهبين ، وإن كان أخذها من أحدهما بتفاوت قوة وضعفاً ، وكثرة وقلة .

هذا التفاوت في الميل إلى أحد المذهبين كان عند الزجاجي في جانب البصرة ؛ فعلى الرغم من أن معظم أساتذته كانوا على صلة وثيقة بنحو الكوفة ، ومذهب علمائها ، وأنهم أخذوا عن ثعلب ، وكان منهم ابن الأنباري والحامض الكوفيان فقد ظهر ميل أبي القاسم الى البصريين حين اعتبر نفسه منهم فقال : « أصحابنا البصريون [1] » ؛ وقال : « وليست هذه المسألة مسطرة لأصحابنا في شيء من كتبهم البتة ، وهي مسطَّرة في كتب الكوفيين [2] » . وظهر ميله هذا حين كان يؤيد رأيهم كما في قوله عن الزاهر : « ووجدت فيه أيضاً مواضع من النحو وعلله ومن التصاريف على مذهب البصريين ودللت على صحة مزاعمهم دون مذهب الكوفيين [3] » .

ولعلّ هذا الميل الى آراء البصريين يرجع إلى تأثير الزجاج في تلميذه ، فمن الواضح أن نسبته إليه تدلّ على أنه كان أستاذه المفضَّل وشيخه الأول ، وقد رأينا كيف مال الزجاج عن ثعلب وهجره إلى المبرد الذي أوصاه بطرح كتب الكوفيين .

ومن حق الزجاجي علينا أن نبيّن أخيراً أن هذا الميل لا يعني أبداً أنه كان متعصّباً ضدّ الكوفيين ، فقد كانت حدة التعصّب فترت من جهة ، وكانت نفسه ـ من جهة أخرى ـ أسمى من أن يعميها التعصب عن الحق . إن « بصريّة » الزجاجي لم تحل دون استعماله مصطلحات في مصنَّفاته . وهو يبسط آراء الكوفيين ، ويذكر أحسن احتجاجاتهم ، ولا يُغلظ لهم القول إن ردّ عليهم ، شأنه في ذلك شأن العالم المنصف المتّزن ، لقد كان أبو القاسم

(١ و ٢) الأشباه والنظائر ٣ : ٤٦

(٣) مختصر الزاهر : الورقة ١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

« زجاجياً » حقاً ، والزجاج هو الذي قال حين عوقب على تركه ثعلباً والتزامه المبرد : « لست أقول بالذكر والخمول ، ولكني أقول بالعلم والنظر » . وكذلك كان تلميذه أبو القاسم لا يقول بالميل والهوى ولكنه يقول بالعلم والحق .

أسلوبه :

وكان الزجاجي ذا أسلوب رصين ، ومنطق محكم متين ، ونفَس طويل ، يلج ميادين الجدل ، بل يفتح على نفسه أبوابها ، ويختلق لخصومه الحجج ، بالنقض ، وعلى العلل بالإبطال ، صنيع علماء المنطق في ايراد أدلة خصومهم لهدمها وبناء آرائهم على أنقاضها ؛ كما كان يمتاز بدقة العالم وأمانته ، فهو لا ينسى إذا كان في صدد الاستشهاد بلفظ أو بيت أن يعنى بالسند العناية اللازمة كما فعل في الأمالي . وهو لا يذكر خبراً إلا يعزوه الى مصدره ويذكر عمن أخذه ويزداد تقديرنا لهذه الصفة إذا علمنا أن جلّ مسائله التي ذكرها لم تكن مدوّنة في الكتب وإنما أخذها مشافهةً عن شيوخه وأساتذته . قال في مقدّمة الإيضاح : « ونضمّ إلى العلل بعد تقديمها ، مسائل مجموعة منثورة من سائر الحدود ، منها ما استخرجناه من كتب العلماء وبسطناه وهذّبناه وقرّبناه ، ومنها ما تلقيناه من علمائنا رضي الله عنهم تلقياً ومشافهة مما لم يودعوه كتبهم ولا يوجد فيها البتة . » وقال في آخر جوابه عن مسألة وردت عليه : « وليست هذه المسألة مسطرة لأصحابنا في شيء من كتبهم البتة وهي مسطرة في كتب الكوفيين ، ولكني سألت عنها أبا بكر بن الخياط ، وابن شقير ، فأجاباني بما ذكرته لك[1] . » ومثل ذلك ما ذكره في مقدمة الإذكار بالمسائل الفقهية . » من إيضاح للمصادر التي استقى منها[2] . مما يجعلنا نقدّر فيه دقة العالم وأمانة المؤلف .

(١) الأشباه والنظائر ٣ : ١٤٦

(٢) هذا البحث ص :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وخلاصة القول أن أبا القاسم الزجاجي ، كان من أفاضل الأئمة في النحو واللغة والأدب . شهد له العلماء بالفضل ، وعدّوه في طبقة أبي سعيد السيرافي وأبي علي الفارسي [١] . وحسبه ما عُرف عنه من شيوع مؤلفاته وعموم نفعها ، وأن كتابه « الجُمَل » كان عليه المعوّل في مرحلة من مراحل تأريخ النحو حتى قيل فيه : هو كتاب المصريين ، وأهل المغرب ، وأهل الحجاز ، واليمن والشام ، إلى ان اشتغل الناس باللُّمع [٢] لابن جني والايضاح [٣] لأبي علي الفارسي [٤] » .

(يتبع) مازن المبارك

---

(١) نزهة الألبا : ٣٧٩

(٢) كتاب اللُّمع لأبي الفتح عثمان بن جني ، وهو كتاب صغير في النحو ، منه نسخة في دار الكتب بالقاهرة رقمها / ١٧١٩ نحو / كتبت سنة ٦٨٠ في بغداد عدد أوراقها / ٦٤ / . ولكتاب اللمع عدة شروح .

(٣) الايضاح كتاب شامل في النحو لأبي علي الحسن بن أحمد ابن عبد الغفار الفارسي منه نسخة في دار الكتب بالقاهرة رقمها / ١٠٠٦ نحو / كتبت بخط مغربي سنة ٥٦٦ هـ وهي في جزأين .

(٤) إنباه الرواة ٢ : ١٦١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net